جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
348-326 العدد السابع عشر : ص.ص ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الاختيارات الكلامية للجاحظ: منابع الاستمداد ومعالم الامتداد

Aljahiz

extension of horizon the and derivations of roots :convictions theology speculative

للدكتور سفيان شطار

أستاذ باحث في الدراسات الإسلامية

الأكاديمية الجهوية للتربية الوطنية _جهة الدار البيضاء سطات_

Dr . soufiane chattar

Resach Professer in islamic studies

Regional Academy Casablanca-Settat Ministry of Education

البريد الالكتروني:

Chattar.sf1988@gmail.com

ORCID: 0009-0007-8514-8205

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الملخص:

يعد أبو عثمان الجاحظ، من أعلام الفكر الكلامي عامة والاعتزالي خاصة الذين أثرت مقالاتهم وآراءهم في الدرس العقدي، وصاغوا نظريات كلامية ما زالت تشغل المتخصصين إلى الآن، ولقد حاد الجاحظ عن كثير من آراء المدرسة الاعتزالية وتبنى آراء واختيارات خالف فيها شيوخ الاعتزال وشيوخه كثمامة بن الأشرس والنظام، ولكثرة اختياراته الكلامية وانفراده عن المتكلمين عامة والمعتزلة خاصة، صار مؤرخو الفرق والملل ينسبون إليه مدرسة خاصة سموها "الجاحظية"، لها معالمها ومفاهيمها واختياراتها الخاصة بها المميزة لها عن غيرها من المدارس الفرعية الاعتزالية، وقد استقى الجاحظ اختياراته الكلامية وتأثر فيها بعدد من المدارس الكلامية والفلسفية، كما أثرت اختياراته في الساحة الكلامية وكانت قاعدة لكثير من النظريات والمقالات كنظرية النظم الجرجانية والكلام النفسي الأشعرية، لذلك يرى الباحث أن الوقوف مع هذه الاختيارات الكلامية وتتبع منابع الاستمداد ورصد معالم الامتداد هي خدمة جليلة لتراث قامة علمية فذة أثرت في الفكر الكلامي قديما وحديثا.

abstract

Abu Othmane Al-jahiz is a one of the prominent figures of the Mu'tazila school – speculative theology- whose thoughts impacted the islamic theology .Almutazila forged speculative theories that still catch experts attention until now.Aljahiz stood out from many Muatazila's thoughts and adopted different ideas from his mentors such as Kuthama Ben Ashrass , Alnazam and others .He was known for his unique ideas to the extent that sectarian historians attribute a special school of thought to him named 'ALJAHIZIA' obviously intellectually independent from others Mu'tazila subsidary schools.Philosophy and the speculative theological schools played a main role into shaping Alajhiz theological convictions ,his ideas earned him an important position among the speculative theology realm and inspired many rising theories such as the theory of systems by Al-Jurjani and the theory of the psycholigical talk by the Ashaa'ira ;thus ,the researcher points out that advocating these theological convictions will serve triumphing the works of an oustanding thinker who has marked the speculative theological thinking in the past and the present .

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الكلمات المفتاحية: الجاحظ، الاختيارات الكلامية

Keywords: Aljahiz, convictions theology speculative

مقدمة:

يعد أبو عثمان الجاحظ، من أعلام الفكر الكلامي الذين أثرت رسائلهم وآراءهم في الدرس العقدي، وصاغ نظريات كلامية ما زالت تشغل المتخصصين إلى الآن، ولا أدل على مكانة الرجل العلمية من تبني عدد من الأعلام لآرائه واختياراته الكلامية، حتى نسب له مؤرخو الفرق والمقالات والملل والنحل كالبغدادي والشهرستاني وغيرهما مدرسة سموها "الجاحظية"، والحديث عن مدرسة يعني حديثا عن معالم خاصة ومفاهيم واختيارات تميز هذه المدرسة عن غيرها من مدارس الاعتزال الفرعية التي يعد الجاحظ أحد أبرز رجالاتها وأعلامها.

وإن الحديث عن اختيارات كلامية للجاحظ، يجعلنا موقنين أنه متكلم ألمعي ونظار لوذعي استطاع أن يطرح آراء خاصة في قضايا كلامية يخالف فيها أساطين الكلام عموما والاعتزال خصوصا، في وقت كان فيه الجدل العقدي والكلامي في ذروة اهتمام العامة والخاصة خلفاء وعلماء.

الهدف من البحث: يروم هذا البحث الوقوف مع هذه الاختيارات الكلامية للجاحظ المتكلم النظار، وتتبع منابع استمدادها ورصد معالم امتدادها وفي ذلك خدمة جليلة لتراث قامة علمية فذة أثرت في الفكر الكلامي قديما وحديثا.

أهمية البحث: البحث في اختيارات الجاحظ الكلامية يسهم في التأريخ لبعض الأفكار والآراء العقدية للمدرسة الجاحظية والإلمام بعلاقات التأثير والتأثر بينها وبين كثير من المدارس الكلامية والفلسفية.

منهجية البحث: استقراء اختيارات الجاحظ، وتحليلها واستنباط منابع التأثر، وتتبع معالم التأثير.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

إشكالية البحث: هل تأثرت اختيارات الجاحظ الكلامية بمدارس فلسفية وكلامية أخرى؟ وما مدى تأثيرها على الساحة الفكرية الكلامية؟

خطة البحث:

مقدمة:

المحور الأول: الاختيارات الكلامية للجاحظ: عرض لنماذج.

المحور الثاني: استمدادات الاختيارات الكلامية للجاحظ وامتداداتها.

خاتمة:

الدراسة:

المحور الأول: اختيارات الجاحظ الكلامية : عرض لنماذج

الجاحظ متكلما:

لقد ولد الجاحظ سنة (148هـ)في العهد الأول للدولة العباسية الذي اتسم بثورة فكرية ونهضة ثقافية، وازدهار في ميادين اللغة والأدب والفلسفة وعلوم الدين، خاصة علم الكلام الذي راجت سوقه وسطع نجمه واشتد الخصام بين أهله، خصوصا بعد تبني المأمون والمعتصم والواثق لفكر الاعتزال وحضهم على مقالاته، بل والتنكيل بمخالفيه وإلزام الناس بتبنيه، ولقد كان الجاحظ يطلب علم الكلام طلبه للأدب، وكانت حلقة النظام شيخ المعتزلة لا تقل أهمية عنده عن حلقات الأخفش والأصمعي والأنصاري وغيرهم، بل كانت أهم، حتى غدا الجاحظ شيخا من شيوخ المعتزلة وعلما من أعلامهم، يطبع كتاباته حتى الأدبية منها بطابعهم، وينافح من خلالها عن مقالاتهم، ويصوغ القضايا الكلامية بعبارات رائقة ولغة رقراقة لطيفة أذابت صلابة المصطلح الكلامي ولينت عباراته المغلقة ورطبت جفاف أسلوبه.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ومما زاد من تمسك الجاحظ بالاعتزال تبني السلطة له، إذ كانت معظم رسائله الكلامية بل والأدبية التي لا تخلو من بعد فلسفي كلامي إجابة لطلب من خليفة أو وزير، أو هدية منه إليهم، فقد أهدى كتابه في الإمامة للخليفة المأمون فكان سببا في تقريبه مع دعم من شيخه ثمامة بن الأشرس ووصيته به لدى الخليفة، فقد أخبر الجاحظ في "البيان والتبين" أنه ألف كتبا في الإمامة استجابة لأمر الخليفة المأمون، وإعجاب الخليفة بتلك المصنفات.(1)

ولما قضى المأمون وتولى المعتصم ثم بعدهما الواثق علا شأن ابن أبي دؤاد وابن الزيات اللذين كانا رأسا المعتزلة ورأسا الدولة بعد الخليفة، إذ كان الواثق "لا يصدر إلا عن رأيهما ولا يخالفهما فيما رأياه"(2) على حد قول المسعودي .

وقد ألف الجاحظ رسائل كلامية عدة نصر فيها الاعتزال وأهداها لابن أبي دؤاد وابن الزيات منها "كتاب المعاش والمعاد" ورسالته في "نفي التشبيه"، ورسالته في "النابتة، ولما تولى المتوكل الحكم بعد أخيه نكب المعتزلة وأبعدهم عن مواطن القرار، وكان الجاحظ ممن ناله هذا الابعاد، فيذكر ابن خلكان أن المتوكل استدعى الجاحظ إلى قصره لتأديب بعض ولده، فلما رآه استبشع منظره ثم صرفه.(3) والذي يظهر أن ذلك لم يكن بسبب بشاعة المنظر بل أيضا لاعتقاد المخبر، ولقد ألف الجاحظ كتابه في الرد على النصارى انسجاما مع سياق خلافة المتوكل الذي ضيق على النصارى لأسباب سياسية، وأهدى لوزير المتوكل الفتح بن خاقان التركي كتابه "مناقب الترك"، ومع انتهاء سطوة الاعتزال على الساحة الكلامية والفكرية وفقدان الظهر السياسي لها آثر الجاحظ شيخ الاعتزال في زمانه الرجوع إلى البصرة، مهده ومرتع صباه، بعيدا عن بغداد، ليتم فيها سفريه "الحيوان" و"البيان والتبين" مغلبا الأديب الألمعي فيه على المتكلم اللوذعي، والبيان على الجدالات الكلامية والمماحكات المذهبية وقد ألمح إلى ذلك في مطلع الجزء السابع من كتاب الحيوان.(4)

---

(1) البيان والتبيين للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، 244/3.

(2) مروج الذهب مروج الذهب ومعادن الجوهر، لأبي الحسن على بن الحسين المسعودي، ت: أسعد داغر، دار الهجرة – قم، 1409 هـ، 478/3.

(3) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين ابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر – بيروت،1994م، 471/3.

(4) رسائل الجاحظ الكلامية، للجاحظ، تقديم وشرح: د. علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال – بيروت، 2002 م، ص340.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

وهذا لا يعني أبدا تنكر الجاحظ لعلم الكلام، فهو أحد نظاره وشيوخه وأعلامه، بل إن اهتبال كثير من المتكلمين بعلوم العربية لم يكن إلا خدمة لعلم الكلام، فأصول الاعتقاد عربية وعليها مدار مقالاتهم وبناء قواعدهم، وفي رسالة "صناعة الكلام" ذكر الجاحظ فضائل علم الكلام ودافع عنه ونافح، واعتبره ميزان العقيدة به يعرف الصحيح من الغلط والحق من الباطل، فهو كالمنطق للفلسفة، وقد شنع على من حرمه واعتبره بدعة واستصغره(5). ولأهمية علم الكلام ألف الجاحظ مجموعة من المؤلفات الكلامية التي ناقش فيها قضايا عقدية كانت محل نقاش وجدل في الوسط الفكري في زمنه، ومنها كتاب "حجج النبوة" الذي سعى فيه الجاحظ إلى إحصاء الحجج الدالة على النبوة وصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وفي رسالته "خلق القرآن" يرد على من يعتبره كلام الله وصفته، بل يرد فيه على بعض شيوخ الاعتزال الذين يرون أن القرآن مخلوق على المجاز لا الحقيقة، يقول الجاحظ عن اعتقاده في القرآن إنه "جسم وصوت وذو تأليف وذو نظم وتقطيع، وخلق قائم بنفسه مستغن عن غيره، ومسموع في الهواء ومرئي في الورق، ومفصل وموصل، ذو اجتماع وافتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء، وكل ما احتملته الاجسام ووصفت به الاجرام. وكل ما كان كذلك فمخلوق في الحقيقة دون المجاز وتوسع اهل اللغة"(6)، وفي موضوع الإمامة ألف "استحقاق الإمامة" وعرض أقوال الخوارج والرافضة وناقشهما، معتبرا الإمامة غير ثابتة بالنص أو الوصية أو الشرع بل تثبت بطبع الناس.

والواضح من مؤلفات الجاحظ الكلامية ومناقشاتها لقضايا علم الكلام في سائر رسائله ومصنفاته، أن الرجل متكلم نظار، محيط بمقالات المتكلمين مدرك لأصولهم وقواعدهم وعقائدهم ومقالاتهم، ذو قدرة على المناظرة ورد حجج المخالفين والدفاع عن مقالاته وآرائه الكلامية، ثم إن الجاحظ قد حاد عن كثير من آراء المدرسة الاعتزالية وتبنى آراء خالف فيها شيوخ الاعتزال وشيوخه كثمامة بن الأشرس والنظام، ولكثرة اختياراته وانفراده عن المتكلمين عامة والمعتزلة خاصة بآراء ومقالات، صار مؤرخو الفرق والملل ينسبون إليه مدرسة خاصة سموها "الجاحظية" يقول الشهرستاني: "وأما معمر بن عباد السلمي، وثمامة بن أشرس النميري، وأبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، فكانوا في زمان واحد متقاربين في الرأي والاعتقاد، منفردين عن أصحابهم بمسائل"(7) وقبل الحديث عن اختيارات المدرسة الجاحظية، أعرج على مفهوم الاختيار الكلامي.

---

(5) الرسائل الكلامية ص9.

(6) المصدر نفسه ص25.

(7) الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، مؤسسة الحلبي، 30/1.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

مفهوم الاختيار الكلامي:

الاختيار لغة: من اختار يختار اختيارا، ويقال أيضا: خار الشيء بمعنى اختاره، أي: اصطفاه، وفضله على غيره، ومال إليه(8). ومنه قوله سبحانه وتعالى: {وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} {القصص: الآية: 68}.

واصطلاحا يعرف الاختيار: بأنه ترجيح الشيء وتخصيصه، وتقديمه على غيره،(9)وتبعا لهذا التعريف يمكن أن نعرف الاختيار الكلامي بأنه ترجيح مقالة كلامية في قضية مختلف فيها، لدليل تستند إليه.

والاختيار الكلامي أقرب إلى معنى الانفراد بمقالة كلامية، وإن كان بينهما فرق دقيق باعتبار الاختيار ترجيحا لمقالة سابقة، والانفراد إبداع مقالة جديدة لم يسبق إليها المتكلم، وقل أن تجد متكلما منفردا بمقالة، إذ لكل المقالات منابع وأصول استمدت منها سواء داخل مجال علم الكلام أو في حقل معرفي آخر، كإدخال كثير من آراء الفلاسفة إلى علم الكلام، ومثل ذلك وإن كان انفرادا من حيث كونه مقالة لم يسبق إليه متكلم، ولكنه اختيار باعتبار ترجيح قول الفلاسفة في تلك القضية عن قول المتكلمين، لذلك آثرت استعمال مصطلح الاختيارات الكلامية على مصطلح الانفراد.

المدرسة الجاحظية:

يعد الجاحظ من الطبقة السابعة في المعتزلة، وقد خالف أصحابه المعتزلة في مسائل وانفرد عنهم بمقالات، وتبعه قوم منهم في اختياراته فسموا "الجاحظية" يقول الرازي: "الجاحظية: أتباع عمرو بن بحر الجاحظ"(10). والجاحظية كما البهشمية و الواصلية والجبائية... وغيرها من فرق المعتزلة وإن اختلفت مع بعضها في بعض

---

(8) ينظر: معجم مقاييس اللغة 2/ 232، ولسان العرب 4/ 266.

(9) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم لمحمد بن علي التهانوي، ت: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط الأولى – 1996م.1/133.

(10) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازي، ت: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية – بيروت، ص 43.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

المسائل والقضايا لكن تجمعهم مبادئ الاعتزال الخمسة التي لا يسمى المعتزلي معتزليا إلا باعتقادها وهي: التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وهذه بعض الاختيارات الكلامية التي اختصت بها مدرسة أبي عثمان الجاحظ:

المعارف ضرورية:

من هذه الاختيارات مقالة الجاحظ واعتباره المعارف كلها ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد. وليس للعبد كسب سوى الإرادة، وتحصل أفعاله منه طباعا(11)، ولقد اهتم الجاحظ بقضية المعرفة وألف فيها حسب ما نشره المستشرق الفرنسي شارل يلّا في مجلة المشرق، خمسة كتب هي: "كتاب المعارف"، و "كتاب المعرفة"، و "كتاب مسائل المعرفة"، و "كتاب المسائل"، ولم يصلنا منها سوى جزء من رسالة " المسائل والجوابات في المعرفة"(12)،وقد عرض في ذلكم الجزء لنظريات بعض شيوخ الاعتزال في المعرفة وهم بشر بن المعتمر وشيخه النظام ومعمر بن عباد، حيث حكم عليها بالفساد وراغ على أصولها وقواعدها ضربا باليمين مبطلا حججها، ثم أخذ يعلن موقفه ويذكر حجج رأيه في ضرورية المعارف، إذ بين أن معرفة الله ضرورية كسائر أنواع المعارف، مثبتا أن الاضطرار هو عدم تدخل الإرادة في معرفة الأشياء، "فلا معنى للمريد غير كونه غير ساه عما يفعله"(13) ويستدل على ذلك بتعرف الطفل على الاشياء المحيطة به بفضل التجارب المتتالية التي يمر بها منذ ولادته وحتى يبلغ ويميز، فهذه التجارب برأيه غير قصدية، أي أنها تختلف عن تجارب البالغ التي يرافقها التصميم والقصد اي الإرادة و "إن البالغ مذ سقط من بطن أمه، إلى أن يبلغ، مقلب في الأمور المختلفة، ومصرف من خلال الحالات المعروفة التي تلقمه الدنيا بما تقرر عليه من عجائبها. ويزداد في كل ساعة معرفة، وتفيده الأيام في كل يوم تجربة، كما يزداد لسانه قوة وعظمه صلابة، ولحمه شدة، من أم تناغيه، وظئر تلهيه، وطفل يلاعبه، وطبيب يعالجه، ونفس تدعوه، وطبيعة تعينه أو شهوة تبعثه، ووجع يقلقه، كما يزيد الزمان من قوته ويشد من عظمه ولحمه، ويزيده الغذاء عظما، وكثرة الغضب والتقليب جلدا، فإذا درج وحبا وضحك وبكى وأمكنه أن يكسر إناء أو يكبه أو يسود ثوبا، أو يضرب صبيا، فضرب دبره الخادم

(11) الملل والنحل 75/1.

(12) رسائل الجاحظ الكلامية ص 17.

(13) الملل والنحل 75/1.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

و انتهره القيم فلا يزال ذلك دأبه ودأبهم حتى يفهم الاغراء والزجر والتعدية والانتهار، كما يعرف الكلب اسمه إذا ألح عليه الكلاب به، وكما يعرف المجنون لقبه، وكما يحضر الفرس من وقع السوط لكثرة وقعه بعد رفعه عليه"(14) هذا الوصف الجميل، لعملية تعلم الإنسان بالتجارب اللاإرادية، يوضح لنا ما ذا يعني الجاحظ بقوله إن المعرفة اضطرار أو طباع.

إن المعرفة تتم بالطبع أو الغريزة لأن الجاحظ يعتبر عقل الانسان غريزة كسائر الغرائز، تعمل دون أن تخضع لإرادة صاحبها. أي أن الانسان لا يستطيع أن يسيطر على عمليات فكره، وليس للإرادة سوى حصر الانتباه في الموضع، أما كيفية عمل العقل فخارجة عن نطاق الإرادة، هذا ما يفسر لنا تشبيه الطفل بالكلب والمجنون، والفرس الذين تسيرهم الغرائز. ويتصرفون دون عقل او إرادة.(15)

وقد أسس الجاحظ في كتاب الحيوان لهذه المسألة، يقول الاسفراييني مشنعا على الجاحظ مخالفته جماهير المسلمين "وأما قوله إن المعارف ضرورية فهو خلاف قول المسلمين وإنما صنف كتاب طبائع الحيوان لتمهيد هذه البدعة الشنعاء، أراد أن يقرر في نفوس من يطالعه هذه البدعة ويزينها في عينه فيغتر بحسن ألفاظه المبتذلة فيها ويظن أنه إنما جمعه لنشر نوع من العلم ولا يعلم أنه إنما قصد به التمهيد لبدعته حتى إذا ألفه واستأنس به واعتقد مقتضاه انسلخ به عن دينه"(16)، ولقد وجد الجاحظ من الناس في زمنه معارضة وردا لما زعمه من أن المعارف ضرورية واعتبروا كلامه مناقضا للتوحيد واتباعا لرأي الفلاسفة وخروجا عن الجادة، فأجابهم في كتاب "الحيوان " وقال:" من زعم أن التوحيد لا يصلح إلا بإبطال حقائق الطبائع، فقد حمل عجزه على الكلام في التوحيد. وكذلك إذا زعم أن الطبائع لا تصح إذا قرنتها بالتوحيد، ومن قال فقد حمل عجزه على الكلام في الطبائع. وإنّما ييأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفّر على التوحيد إلى بخس حقوق الطبائع، لأن في رفع أعمالها رفع أعيانها، وإذا كانت الأعيان هي الدالة على الله فرفعت الدليل، فقد أبطلت المدلول عليه،

---

(14) رسائل الجاحظ الكلامية " المسائل والجوابات في المعرفة" ص 119.

(15) رسائل الجاحظ الكلامية ص18.

(16) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، لأبي المظفر الأسفراييني، ت: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب – لبنان، ط: الأولى، 1403هـ – 1983م، ص82 بتصرف.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ولعمري إن في الجمع بينهما لبعض الشدة"(17) هكذا يرى الجاحظ أن الطباع غير مناقضة للتوحيد بل هي دليل عليه وإبطالها إبطال له.

المجتهد المخطئ في أصول الدين معذور:

إن من المعلوم والمقرر لدى جمهور علماء الأمة أن المجتهد المخطئ في العمليات والفروع معذور مأجور، أما المجتهدون المخطؤون في العقليات من مسائل العقيدة فهم آثمون مبتدعون إن كان الخطأ فيما لا يمنع من معرفة الله ومعرفة رسوله صلى الله عليه وسلم كما في مسائل الرؤية وخلق الأعمال، وإن أخطأ فيما يرجع إلى الإيمان بالله ورسوله كنفاة الإسلام من اليهود والنصارى، فهم مخطئون آثمون كافرون، _كما يقول العلامة حللو _ وهذا مجمع عليه من علماء الأمة ولا فرق في ذلك بين المجتهد وغيره، ولا عبرة لمخالفة عمرو بن بحر الجاحظ وعبد الله بن الحسن العنبري في قولهما ... "(18)

ولا تكاد تتصفح كتابا ذكر هذه المسألة إلا وتجد ذكر الاستثناء وهما العنبري والجاحظ، اللذين اختلف العلماء في معنى قولهما، والمقصود من التصويب عندهما، هل يشمل كل الأديان والملل أم هو خاص بمجتهدي المسلمين؟

فمعظم المتكلمين من الأشاعرة يجعلون قول الجاحظ في رفع الإثم عن المجتهد في العقليات عاما لسائر الأديان، يقول الآمدي: "وأما إن نظروا وبالغوا في الاجتهاد فأداهم النظر والاجتهاد إلى الكفر، وعجزوا عن درك الحق فمذهب أهل الحق: أنهم أيضا كالمعاندين فيما يرجع إلى الخلود في النار، وذهب الجاحظ: إلى أنهم معذورون، لأنهم أدوا ما يجب عليهم من الاجتهاد فأداهم إلى ما يعتقدونه حقا، وهم ملازمون له، خوفا من الله–تعالى"(19) ، بمعنى أن الجاحظ يرى أنهم غير آثمين معذورون لبذلهم الجهد، وليس معنى التصويب أن كفرهم صار حقا صوابا، وهو ما أكده الطوفي بقوله: "وقال العنبري والجاحظ: لا إثم على من أخطأ الحق، مع

---

(17) الحيوان للجاحظ، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الثانية، 1424 هـ 322/2.

(18) الضياء اللامع شرح جمع الجوامع 2/ 513.

(19) أبكار الأفكار في أصول الدين لأبي الحسن الآمدي، ت: أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، ط: الثانية، 1424 هـ –2004 م، 107/5.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الجد في طلبه مطلقا " يعني في الأصول والفروع، " حتى مخالف الملة " كاليهود والنصارى والدهرية، لو جدوا في طلب الحق ولم يعاندوا"،(20)ولذلك قيل في المثل: يا ويح من كفره الجاحظ.(21)

في حين يحمل بعض العلماء قول الجاحظ والعنبري على المجتهد في أصول الديانات التي يختلف فيها أهل القبلة ويرجع المخالفون فيها إلى آيات وآثار محتملة للتأويل كالرؤية وخلق الأفعال والتجسيم وما أشبه ذلك دون ما يرجع إلى الاختلاف بين المسلمين وغيرهم من أهل الأديان(22)، وهو الذي نصره المعتزلة بل وغيرهم من الأشاعرة، يقول الزركشي في تشنيف المسامع: "ثم اختلف النقل عنهم [أي الجاحظ والعنبري] فمنهم من أطلق ذلك فشمل سائر الكفار والضلال، ومنهم من شرط الإسلام، وهذا هو اللائق بهما".(23)

اختياراته في قضية الإمامة:

إن قضية الإمامة وإن كانت من المسائل الفقهية في الأصل إلا أن تأثيرها في الاختلاف العقدي وترتب كثير من مباحث ومسائل ومقالات العقيدة عليها جعلها من قضايا المتكلمين، يقول الغزالي: "اعلم أن النظر في الإمامة أيضا ليس من المهمات، وليس أيضا من فن المعقولات، بل من الفقهيات، ثم إنها مثار للتعصبات، والمعرض عن الخوض فيها، أسلم من الخائض فيها، وإن أصاب، فكيف إذا أخطأ، ولكن إذ جرى الرسم باختتام المعتقدات بها، أردنا أن نسلك المنهج المعتاد"(24)، ويقول الشهرستاني "أعظم خلاف بين الأمة، خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان".(25)

ولما كان الأمر كذلك فقد أولاها الجاحظ أهمية بالغة وصاغ نظرية جاحظية خاصة في الإمامة فقد بحث في كتاب "استحقاق الإمامة" نظرية الإمامة وشرح رأيي الشيعة والخوارج ثم أبدي رأيه الخاص، ونجد في لائحة

(20) شرح مختصر الروضة، لنجم الدين الطوفي، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ، 1407 هـ / 1987 م، 602/3.

(21) البداية والنهاية، لابن كثير الدمشقي ، دار الفكر، 1407 هـ – 1986 م، 20/11.

(22) اللمع في أصول الفقه، لأبي اسحاق الشيرازي، دار الكتب العلمية، ط الثانية 2003 م – 1424 هـ. ص129.

(23) 585/4.

(24) الاقتصاد في الاعتقاد ص 127.

(25) الملل والنحل 24/1.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

كتبه عناوين عدة رسائل حول هذا الموضوع، منها «كتاب حكاية قول أصناف الزيدية»، «و كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة»، «و رسالة في بيان مذاهب الشيعة» ومنتخبات من رسائل عدة. وقد نشرها السندوبي في رسالة واحدة، ونشرها عبد السلام هارون في ثلاث رسائل، نقلا عن هامش الكامل للمبرد، تحت العناوين التالية: «من كتابه في مقالة الزيدية والرافضة»، «من كتابه في استحقاق الإمامة»، من كتابه «في الجوابات واستحقاق الامامة»(26)، وسأختار من نظرية الجاحظ في الإمامة نموذجين لاختيارات الجاحظ:

إمامة المفضول لا تجوز:

يرى معظم المتكلمين والفقهاء جواز إمامة المفضول للفاضل، مستدلين على ذلك بإجماع الصحابة، ومنها طرح أبي بكر يوم السقيفة اسمي عمر وأبي عبيدة لتولي الخلافة، رغم أن الجميع يعلم فضل أبي بكر عليهما، وكذلك فعل عمر بترشيحه الستة لخلافته مع علم الصحابة أن منزلة عثمان وعلي أرفع وأعلى من الأربعة الآخرين، إلا أن الجاحظ خالف هذا الرأي ورأى أن البيعة لا تنعقد والإمامة لا تصح للمفضول مع وجود الفاضل.(27)

نصب الامام طبعا وعقلا:

لقد اختلف المتكلمون في الدليل على وجوب الإمامة، بين من يرى أن الدليل سمعي وهو قول أهل السنة وقول أكثر المعتزلة والزيدية، وبين من يرى أن العقل هو الذي يدل على أنه يجب علينا نصب الإمام(28) وهو قول الجاحظ وأبي الحسين البصري، حيث يرى الجاحظ أن الناس في حاجة لإمام بالطبع والعقل دون دلالة الشرع على ذلك، إذ لا استقامة لمعيشتهم إلا بها، فيقول" لو ترك الناس وقوى عقولهم وجماح طبائعهم ورغبة شهواتهم وكثرة جهلهم ... كان قد كلفهم شططا وأسلمهم إلى عدوهم. فلما كان ذلك كذلك علمنا أن الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه، لم يخلقه إلا لصلاحهم، ولا يجوز صلاحهم إلا بتنقيتهم، ولولا الأمر والنهي ما كان للتنقية وتعديل الفطرة معنى. ولما كان لابد للعباد من أن يكونوا مأمورين منهيين بين عدو عاص ومطيع ولي، علمنا

---

(26) رسائل الجاحظ الكلامية ص 27.

(27) ينظر: الأحكام السلطانية، لأبي الحسن الماوردي، دار الحديث – القاهرة، ص 127.

(28) معالم أصول الدين، لفخر الدين الرازي، ت: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي – لبنان ص 141.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

أن الناس لا يستطيعون مدافعة طبائعهم ومخالفة أهوائهم إلا بالزجر الشديد، والتوعد بالعقاب الأليم في الآجل، بعد التنكيل في العاجل، فلما كان ذلك كذلك علمنا أنه لا بد للناس من إمام يعرفهم جميع مصالحهم"(29).إن إقامة الإمام بنظر الجاحظ لا ترتكز إلى نص أو وصية أو شرع بل إلى طبع الناس، فإن طبائع الناس وشهواتهم، تدفعهم إلى الشرور والهلاك، ولا يقوى العقل على ردعها. ومن ثم مست الحاجة إلى قوة تخيف الناس تتمثل بالإمام الذي يعاقب ويتوعد وينتقم ويحبس وينفي، وفي ذلك يخالف الشيعة الذين يقولون إن الإمامة لا تبنى على الإكراه والترهيب بل على الهداية والإرشاد. ويرفض الجاحظ رأي الخوارج القائل إن الإمامة يمكن الاستغناء عنها وتعددها: فقد يقيم الناس إماما واحدا أو اكثر وقد لا يقيمون اي إمام، ويقول لا بد من إمام يقمع طباع الشر الموجودة لدى الناس، ولا ينبغي ان يقام أكثر من إمام واحد، درءا للخلاف والمنافسة بينهم.(30)

وأكتفي بهذه النماذج وإلا فإن هناك اختيارات كلامية كثيرة للجاحظ كقوله باستحالة فناء الجواهر وانعدامها(31) وأن الإعجاز في القرآن في ما اشتمل عليه من البلاغة الّتي تتقاصر عنها سائر ضروب البلاغات...

المحور الثاني: استمدادات اختيارات الجاحظ الكلامية وامتداداتها:

الفلسفة والاختيارات الكلامية الجاحظية:

لقد كان الجاحظ يعتبر دراسة الفلسفة شرطا لإتقان صناعة الكلام والتمكن من مباحثه، وشرط العالمية عنده الجمع بين الفلسلفة والكلام، يقول: "وليس يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة، يصلح للرئاسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلسفة. والعالم عندنا هو الذي يجمعهما"(32) ويكفي تصفح كتابات الجاحظ لتدرك أن الرجل مطلع على آراء الفلاسفة مستوعب لمقالاتهم ومدرك لمقاصدهم، ثم إذا نظرت رأيت تأثيرا للفلسفة واضحا في اختياراته الكلامية، فقد كان يرى أن الأجسام

(29) رسائل الجاحظ الكلامية " كتاب استحقاق الإمامة" ص184.

(30) رسائل الجاحظ الكلامية " كتاب استحقاق الإمامة" ص27، 28.

(31) أبكار الأفكار 466/3.

(32) الحيوان 322/2.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

المؤلفة من الجواهر ثابتة لا تفنى، وأن فناءها هو تفريق أجزائها، تأثرا بالفلاسفة الطبيعيين الذين يذهبون إلى القول بقدم العالم واستحالة فناء المادة، ويرون أن الخلق عبارة عن تجمع أجزاء المادة في أجسام منتظمة، وأن الفناء هو تفرق أجزاء تلك الأجسام، كما أن أشهر اختياراته الكلامية وهي اعتباره المعارف كلها ضرورية وطباعا، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد. وليس للعبد كسب سوى الإرادة، وتحصل أفعاله منه طباعا، و أن الأخلاق طباع في الناس وفطرة فطروا بها لا كسب لهم فيها، سار فيه على نهج الفلاسفة الطبيعيين(33).

وقد مهد لهذا الاختيار الفلسفي الكلامي في كتاباته الأدبية، كرسالته في البغال التي نحى فيها منحى طبيعيا إذ بين أن للأشياء طبائع تغلب عليها وتظهر في سلوكها وهيئتها... وبين فيها أن للطبيعة التي تعيش عليها المخلوقات تأثيرا في ألوانها وأجسامها وطباعها. فهو مثلا يرفض رأي من يقول: أن الحمير الأخدرية هي نتاج خيل لكسرى توحشت وضربت في الغابات. ويرى أنه لا يجيء بين الخيل والحمير إلا البغال التي لا تتناسل لأنه لا يعيش لها نسل، فكيف لقحت هذه الأنثى من تلك الخيل حميرا طبقت تلك الصحارى بالحمر الخالصة". والأقرب إلى العقل هو القول أن الحمير الوحشية اكتسبت خصائصها المميزة من العظم والتمام بتأثير البيئة التي تعيش فيها. لقد كان الأكاسرة إذا اصطادوا عيرا وسموه بأسمائهم وأطلقوه في الصحارى "فعسى أن تكون هذه الحمير أو بعضها صار في ذلك الصقع الذي هذا صفته، فإن للماء والتربة والهواء في هذا عملا ليس يخفى على أهل التجربة"(34) .

ويضرب مثلا أيضا بالقمل الذي يأخذ لون شعر الرأس، قال: "فنرى قمل رأس الشاب الأسود الشعر أسود، ونراه في رأس الشيخ الأبيض الشعر أبيض، ونراه في رأس الخاضب بالحمرة أحمر، نعم حتى أنك ترى في القملة شكلة إذا كان خضاب الشيخ ناصلا، وهكذا طبع الله الأشياء"(35). كما نحى في سفريه العظيمين "الحيوان" و"البيان والتبين" منحى فلسفيا، حيث تطرق فيهما لفلسفة اللغة، وعرض لموضوعات التولد والجزء الذي لا يتجزأ والكمون والتولد...

---

(33) ينظر: المواقف للايجي 669/3.

(34) البغال، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط: الثانية، 1418 هـ، ص83.

(35) كتاب البغال ص10.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

والحق أن الجاحظ وإن كان لبعض اختياراته الكلامية أصول فلسفية، فهذا لا يعني أن كل كلامه ذا جذور فلسفية، فلكل من علمي الكلام والفلسفة خصائص معرفية تجعل الفروق بينهما واضحة فالكلام من علوم الدين ومباحثها معرفة الله ذاتا وصفات وأفعالا وسمعيات ونبوات...والفلسفة من العلوم العقلية وموضوعاتها غير موضوعات الكلام، وإن اشتركا في بعض الموضوعات فإن الغاية والتوظيف يختلفان، فالكلام يوظفها لنصرة العقائد والفلسفة تبحث فيها لذاتها. يقول المتكلم الماتريدي طاش كبرى زاده:" إن الكلام يستند إلى ما جاء به الدين من اعتقادات، ثم يلتمس الحجج العقلية التي تدعمه، أما الفيلسوف فيبحث بعقله، ويرى حقا ما توصل إليه من دليل، فالأول يعتقد ثم يستدل، والثاني يستدل ثم يعتقد"(36). وقد كان المعتزلة بما فيهم الجاحظ يوجهون نقدا شديدا لبعض الآراء الفلسفية وأعلام الفلسفة، يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي في أريسطو: "أما أرسطا طاليس هذا، فلا معول على ما يقوله، وإن كان أصحابه قد صدقوا عليه فهو غير كامل، فمن يعده أو يعتد بقوله أو يذكره فيمن يرد عليه ويتتبع عوراته، وهو عورة كله من أوله لآخره"(37)وشنع الجاحظ عن بعض مناطقة المسلمين تقديمه كتاب المنطق على الوحي فقال:" رضي بكتاب المنطق بدلا من القرآن، وبالكون والفساد عوضا عن الأحكام، وبالعرض والجوهر خلفا، والجزء والطفرة شرفا"(38).

تأثر الجاحظ بشيوخ الاعتزال:

لقد تتلمذ الجاحظ على كبار شيوخ الاعتزال، لكن تأثير رجلين منهم على آرائه ومقالاته يبدو واضحا، وهما " النظام" و"ثمامة بن الأشرس"، إلا أن النظام كان أكثرهما تأثيرا على فكر الجاحظ وأعظمهما قدرا عنده، ولا تكاد تجد مترجما للنظام إلا ويصفه بشيخ الجاحظ، كما أن جل من ترجم للجاحظ يسمه بتلميذ النظام، يقول ابن المرتضى المعتزلي وهو يبين منزلة النظام" ويكفيك أن الجاحظ كان من تلامذته."(39)

ولقد كانت المدرسة النظامية ذات تأثير على معظم مدارس الاعتزال وأعلامها، فقد كان النظام أبو إسحاق إبراهيم بن سيار البصري شيخ المعتزلة في زمانه، يقول عنه الجاحظ: "ما رأيت أحدا اعلم بالكلام والفقه من

(36) ينظر مفتاح السعادة 50/2.

(37) تثبيت دلائل النبوة، للقاضى عبد الجبار المعتزلي، دار المصطفى – شبرا– القاهرة، 79/1.

(38) رسالة الهجاء ص 59.

(39) طبقات المعتزلة، لأحمد بن يحيى بن المرتضى، دار مكتبة الحياة – بيروت، 1380 هـ، ص51.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

النظام"(40)، ويبالغ في بيان قدره فيقول :"الأوائل يقولون: في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن كان ذلك صحيحا فهو أبو إسحاق النظام".(41)

بل إن تأثر الجاحظ بالنظام كان بابه للتأثر بالفلسفة، فقد كان النظام يحفظ كتب الفلسفة حفظا وتجلى تأثره بها في نظرياته الكلامية كالجزء الذي لا يتجزأ والطفرة... "وقد ذكر الوزير جعفر بن يحيى البرمكي أرسطا طاليس للنظام، فقال له النظام: قد نقضت عليه كتابه، فقال جعفر: كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه؟ فقال: أيما أحب إليك، أن أقرأه من أوله إلى آخره، أم من آخره إلى أوله، ثم اندفع يذكر شيئا فشيئا، وينقض عليه، فتعجب منه جعفر"(42).

إلا أن هذا التأثر بالنظام لم يحل دون مخالفة الجاحظ له، فقد رد الجاحظ في رسالته حجج القرآن على شيخه النظام الذي كان يقول بالصرفة أي انصراف الناس عن معارضة القرآن، وأن معجزة القرآن في معانيه وإخباره الغيب، يقول الجاحظ مبينا سبب تأليفه لحجج القرآن: فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن والرد على طعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ولا لحديثي ولا لحشوي، ولا لكافر مباد ولا لمنافق مقموع ولا لأصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق وليس تأليفه بحجة وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة(43)، كما ألف رسالته في "المسائل والجوابات في المعرفة" وغيرها لعرض نظرية النظام وغيره من المعتزلة ومناقشتها وردها(44).

---

(40) طبقات المعتزلة 52.

(41) طبقات المعتزلة ص51.

(42) المنية والأمل، للقاضي عبد الجبار المعتزلي، ت: الدكتور سامي النشار – الدكتور عصام الدين محمد، دار المطبوعات الجامعية – الإسكندرية،1972 م، 48/1.

(43) رسائل الجاحظ الكلامية ص166.

(44) المصدر نفسه ص112.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

أما ثمامة بن الأشرس النميري شيخ المدرسة الثمامية فقد كان رأسا في الكلام والاعتزال، زعيم المعتزلة في أيام المأمون والمعتصم والواثق، أخذ عنه الجاحظ(45)وتتلمذ على يديه، وكان بابه إلى القرب من المأمون العباسي، وقد وافقه الجاحظ في كثير من مقالاته الكلامية وتأثر به في اختياراته، من ذلك اتفاقهما أن المعارف ضرورية،(46)وأن لا فعل للعباد إلا الإرادة، وما سوى ذلك عند بن الأشرس لا ينسب إلى فاعل، بل هو حدث لا محدث له في الحقيقة، أما الجاحظ فإنه يرى أن سائر الأفعال تنسب إلى العباد على أنها وقعت منهم طباعا.

وكما الأمر بالنسبة للنظام فإن الجاحظ قد خالف شيخه ابن الأشرس في عدد من القضايا الكلامية والآراء العقدية، من ذلك رده قول ابن الأشرس أن القرآن مخلوق على المجاز لا على الحقيقة، فالقرآن صوت وتقطيع ونظم وتأليف وليس جسما، والصوت عرض يتولد عن علة موجبة ولا يحدث الا من جرمين كاصطكاك الحجرين وكقرع اللسان باطن الاسنان ومن هواء يضغط، ولا يقوم بذاته، وما كان هذا شأنه لا يكون مخلوقا على الحقيقة بل على المجاز، أما الجاحظ فيرى أن القرآن على غير ما يقول ابن الأشرس ومن معه فهو على حد قوله:"جسم وصوت وذو تأليف وذو نظم وتقطيع، وخلق قائم بنفسه مستغن عن غيره، ومسموع في الهواء ومرئي في الورق، ومفصل وموصل، ذو اجتماع وافتراق، ويحتمل الزيادة والنقصان والفناء والبقاء، وكل ما احتملته الاجسام ووصفت به الاجرام. وكل ما كان كذلك فمخلوق في الحقيقة دون المجاز وتوسع اهل اللغة"(47)

امتدادات الاختيارات الكلامية للجاحظ:

لقد شغلت اختيارات الجاحظ العقدية وآراؤه الكلامية الساحة الفكرية في زمنه وبعده، وانقسم المتكلمون بين مؤيد ومخالف منصف وآخر مفتر ومتهم، فكثير من المقالات التي تنسب للجاحظ لا توجد في كتبه بل ذكرها بعض خصومه ثم تناقلتها كتب الفرق والنحل، و"إن قول الرجل إنما يعرف بحكاية أصحابه عنه، أو بكتبه، وكتب الجاحظ معروفة مشهورة"(48)

(45) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن أحمد ابن العماد، ت: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط: الأولى، 1406 هـ – 1986 م 231/3.

(46) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ص 79.

(47) رسائل الجاحظ الكلامية ص25.

(48) الانتصار للخياط ص59.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ومن الاختيارات التي أضيفت إلى الجاحظ والتهم التي نسبت إليه ما يحكيه الراوندي عنه، "أن القرآن جسد يجوز أن يقلب مرة رجلا ومرة حيوانا" وهو قول نقل عن الراوندي وعزاه غير واحد من العلماء للجاحظ كالشهرستاني(49) والآمدي(50) وغيرهما... يقول زهدي جار الله: "إنه لا يعقل أن يقول الجاحظ هذا القول؛ بل الأرجح أن يكون ابن الراوندي نسبه إليه للحط من قدره"(51).

وقد يكون هذا القول من باب اللوازم، فإن المعتزلة لما قالوا بخلق القرآن لزمهم أن يتصف القرآن بصفات المخلوقات كالجسمية، ومعلوم أن لازم المذهب ليس بمذهب،

ومن ذلك اتهامه بأن لن يدخل النار أحد ولكنها بطبعها تجذب إلى نفسها أهلها فيبطل الجاحظ بذلك الثواب والعقاب(52)، وهو قول بحثت عنه في كتب الجاحظ ورسائله بما استطعت وما تيسر لي فما وجدته، بل وجدته يتحدث عن النار وكونها دار شقاء، ويدعو على أعدائه بدخولها، يقول الجاحظ عن ابن ملجم: "إلى أن قتل أشقاها علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، فأسعده الله بالشهادة وأوجب لقاتله النار واللعنة"(53)، وهذا الكلام الواضح يتعارض مع ما نسبه الآمدي للجاحظ من قوله:" أن الله لا يخلد أحدا في النار، ولا يدخله إليها، بل النار هي التي تجتذب أهلها إلى نفسها "(54)، أما قضية فناء النار فهي إن صحت عنه فمسألة قال بها رجال قبله، و متلكمون من مدارس مختلفة، وأما أن الله لا يدخل أحدا النار بعمله بل النار تجتذب أهلها فمتعارض مع مبادئ الاعتزال العامة التي يدين بها الجاحظ وكذا مع صريح كلامه في كتبه والله أعلم.

ثم إن آراء الجاحظ الكلامية عرفت في زمانه رواجا يدل عليه تأثر الناس به، وتكون مدرسة اعتزالية فرعية هي "الجاحظية" التي تحمل اسمه وترى رأيه وتدين باختياراته، فما من قضية أثيرت في زمنه إلا وكان له فيها رأي ومقالة، فقد كان من أوائل من ألف في مقارنة الأديان برسالته في" الرد على النصارى"، وصنف كتابيه" النابتة"

---

(49) الملل والنحل 76/1.

(50) أبكار الأفكار 50/5.

(51) المعتزلة ص 48.

(52) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، ص82.

(53) رسائل الجاحظ الكلامية 241.

(54) أبكار الأفكار 50/5.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
ISSN: 2958-8537 Issue: N17 العدد السابع عشر : ص.ص 326-348
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

و"الرد على المشبهة" في الرد على الإمام أحمد وأتباعه الذين سماهم العوام ونعتهم بصفات قبيحة، ودخل أيضا في صراع فكري مع الروافض والزيدية وصاغ نظرية متكاملة في الإمامة.

إلا أن أهم مقالات الجاحظ والتي امتدت جذورها وتبناها بعض خصومه كالأشاعرة، نظريته في إعجاز القرآن، فمن تأمل في نظرية النظم عند الجرجاني الأشعري يدرك تأثرا واضحا منه بما سطره الجاحظ في رسالته "خلق القرآن" وما وصلنا من كتابه "نظم القرآن" في معنى الإعجاز، وفي قضية أن الإعجاز في النظم والمزية في اللفظ، وأن مدار الإعجاز في التلاءم والانسجام بين أجزاء الكلم، وهو نفس الإطار الذي بنى عليه الجرجاني نظريته في النظم(55)، بل إن هذا التأثير للجاحظ على الفكر الكلامي الأشعري امتد إلى واحدة من أشهر مقولات الأشاعرة وهي "الكلام النفسي" التي أرادوا بها التوفيق بين الحنابلة الذين يرون أن القرآن هو صفة لله فهو كلامه وبين قول المعتزلة بخلق القرآن، حيث يرى الأشاعرة أن كلام الله الحقيقي هو معنى موجود في النفس، لكن جعل عليه أمارات تدل عليه، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم بعث إلى العرب فأفهمهم كلام الله القديم القائم بالنفس بكلامهم وهي الحروف العربية المنظومة، وأن التحدي والإعجاز يقع بها فهي المعبرة عن الكلام القديم والدالة عليه، ولا يقع التحدي بالكلام القائم بالنفس طبعا، والجاحظ وإن كان يقول بخلق القرآن وينفي صفة الكلام بل يعتبر كل الصفات هي عين الذات، إلا أنه يؤكد بالنسبة للبشر على وجود هذا الكلام النفسي، يقول في "البيان والتبين": قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني: المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم، والمتخلجة في نفوسهم، والمتصلة بخواطرهم، والحادثة عن فكرهم، مستورة خفية، وبعيدة وحشية، ومحجوبة مكنونة، وموجودة في معنى معدومة، لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه، ولا معنى شريكه والمعاون له على أموره، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره. وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها"(56)

(55) دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، ت: د. محمد التنجي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط: الأولى، 1995، ص77.

(56) البيان والتبيين، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ، 81/1.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

ويقول:" والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله عز وجل يمدحه، ويدعو إليه ويحث عليه. بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم"(57)، فكأن الكلام القائم بالنفس عند الأشاعرة هو نفسه المعنى القائم بالنفس عند الجاحظ، بل إن المعنى الثاني أساس الأول وملهمه.

خاتمة

وهذه أهم نتائج وخلاصات الورقة:

_ الاختيار الكلامي هو ترجيح مقالة كلامية في قضية مختلف فيها لدليل تستند إليه.

_ لقد كان الجاحظ متكلما نظارا فذا محيطا بمقالات المتكلمين مدركا لأصولهم وقواعدهم وعقائدهم ومقالاتهم، ذا قدرة على المناظرة ورد حجج المخالفين والدفاع عن مقالاته وآرائه الكلامية.

_ لقد حاد الجاحظ عن كثير من آراء المدرسة الاعتزالية وتبنى آراء واختيارات خالف فيها شيوخ الاعتزال وشيوخه كثمامة بن الأشرس والنظام، ولكثرة اختياراته الكلامية وانفراده عن المتكلمين عامة والمعتزلة خاصة، صار مؤرخو الفرق والملل ينسبون إليه مدرسة خاصة سموها "الجاحظية".

_ من اختيارات الجاحظ الكلامية التي أثارت جدلا ونقاشا اعتباره المعارف كلها ضرورية، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد. وليس للعبد كسب سوى الإرادة، وأن معرفة الله ضرورية كسائر أنواع المعارف، مثبتا أن الاضطرار هو عدم تدخل الإرادة في معرفة الأشياء، فلا معنى للمريد غير كونه غير ساه عما يفعله.

_ ومن اختياراته اعتبار المجتهد المخطئ في أصول الدين معذور، وقوله باستحالة فناء الجواهر وانعدامها، وأن الإعجاز في القرآن في ما اشتمل عليه من البلاغة التي تتقاصر عنها سائر ضروب البلاغات...

_ لقد أولى الجاحظ مبحث الإمامة عناية خاصة وصاغ نظرية جاحظية متكاملة الأركان بناها على عدد من الاختيارات، منها: أن البيعة لا تنعقد والإمامة لا تصح للمفضول مع وجود الفاضل، وأن الدليل على وجوب

(57) المصدر نفسه 82/1.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

الإمامة، هو العقل والطبع حيث يرى الجاحظ أن الناس في حاجة لإمام بالطبع والعقل دون دلالة الشرع على ذلك، إذ لا استقامة لمعيشتهم إلا بها...

_ لقد كان الجاحظ مطلعا على آراء الفلاسفة مستوعبا لمقالاتهم ومدركا لمقاصدهم، متأثرا في بعض اختياراته الكلامية بهم خصوصا الفلاسفة الطبيعيون كرأيه في أن الأجسام المؤلفة من الجواهر ثابتة لا تفنى، وأن فناءها هو تفريق أجزائها، وأن المعارف ضرورية.

_ من الجلي تأثر الجاحظ في اختياراته بشيخيه النظام وابن الأشرس، مع مخالفته لهما في بعض مقالاته وآرائه.

_ لقد شغلت اختيارات الجاحظ العقدية وآراؤه الكلامية الساحة الفكرية في زمنه وبعده، وانقسم المتكلمون بين مؤيد ومخالف منصف وآخر مفتر ومتهم، وتأثرت بمقالاته الساحة الكلامية وكانت قاعدة لكثير من النظريات والمقالات كنظرية النظم عند الجرجاني والكلام النفسي عند الأشاعرة.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

لائحة المصادر والمراجع:

_ الأسفراييني: أبو المظفر الأسفراييني، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، ت: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب – لبنان، ط: الأولى، 1403هـ – 1983م.

_ الآمدي: أبو الحسن الآمدي، أبكار الأفكار في أصول الدين، ت: أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق القومية القاهرة، ط: الثانية، 1424 هـ –2004 م.

_ ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد حزم الأندلسي، الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي – القاهرة.

_ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر بيروت،1994م.

_ ابن العماد: عبد الحي بن أحمد ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ت: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، ط: الأولى، 1406 هـ – 1986 م.

_ ابن كثير: البداية والنهاية، دار الفكر، 1407 هـ – 1986 م.

_ ابن المرتضى: أحمد بن يحيى بن المرتضى، طبقات المعتزلة، دار مكتبة الحياة – بيروت، 1380 هـ .

_ التهانوي: محمد بن علي التهانوي، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، ط: الأولى – 1996م.

_ الجاحظ: أبو عثمان الجاحظ، البغال، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط: الثانية، 1418 هـ.

البيان والتبيين دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1423 هـ

الحيوان، دار الكتب العلمية – بيروت، ط: الثانية، 1424 هـ.

رسائل الجاحظ الكلامية، تقديم: د. علي بو ملحم، دار ومكتبة الهلال – بيروت2002 م.

_ الجرجاني: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، دار الكتاب العربي – بيروت، ت: د. محمد التنجي، ط: الأولى، 1995م.

جلة جامعة الزيتونة الدولية – مجلة علمية محكمة تصدر عن جامعة الزيتونة الدولية
https://journal.ziu-university.net
30/12/2023
العدد السابع عشر : ص.ص 326-348 ISSN: 2958-8537 Issue: N17
Al-Zaytoonah University International Journal for Scientific Publishing

_ الرازي: فخر الدين الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ت: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية – بيروت.

معالم أصول الدين، ت: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي – لبنان.

_ الشيرازي: أبو اسحاق الشيرازي، اللمع في أصول الفقه، دار الكتب العلمية، ط الثانية 2003 م – 1424 هـ.

_ الطوفي: نجم الدين الطوفي، شرح مختصر الروضة، ت: عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى ، 1407 هـ / 1987 م.

_ القاضي: القاضي عبد الجبار الهمذاني المعتزلي، تثبيت دلائل النبوة، دار المصطفى – شبرا– القاهرة.

المنية والأمل، ت: الدكتور سامي النشار، دار المطبوعات الجامعية – الإسكندرية، 1972 م.

_ الماوردي: أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، دار الحديث – القاهرة.

_ المسعودي: أبو الحسن على المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ت: أسعد داغر، دار الهجرة – قم،1409 هـ.